

في دلالات الصمت عن مشكلة التفاوت بين الجنسين عموماً، إذا حلنا الإنتاج السوسولوجي الضخم حول المدرسة إلى غاية بدايات التسعينيات، لا يمكننا إلا أن ندهش من صمت علماء الاجتماع، لكنها لم تثر اهتمامهم. خصوا في السياق الفرنسي، ووجهت نحو تحليل التفاوت الاجتماعي الذي يتيح وضع الملاحظات الإمبريقية في إطار نظري أثير (الماركسية)، ففي هذا السياق الخاص، يجري حجب كل ما لا يرتبط بوضوح بسير «المدرسة التطبيقية»، وينظر إليه على أنه أمر ثانوي. ويثير هذا الصمت الدهشة فعلاً، في نظر ماري دورو بيل، إذا علمنا أن أحد المواضيع الأساسية السوسولوجيا التربوية، وفق المرجعية الدوركهايمية التأسيسية، هو تحليل الوسائل التي عن طريقها يحدد مجتمع ما باستمرار شروط وجوده الخاص، ومنها التقسيم الجنسي للوظائف والمهام (9). في مجتمع ما؛ ومعايير تمييز، تندرج غالباً ضمن خصوصيات بيولوجية، لهذا، فكل مجتمع يحرص على أن يجعل تقسيمه للعمل بين الجنسين، يدرك باعتباره بديها، خصوا بالاستناد إلى الاختلافات من ناحية الكفايات والمؤهلات والمهام، والتي كشف الدرس الإثنولوجي أنها في الواقع متغيرة من مجتمع إلى آخر. الماذا إذا تصمت سوسولوجيا التربية عن ظواهر هي مع ذلك في صلب إشكالياتها؟ هل لأن الجنس متغير خاص؟ تجيبنا ماري دورو بيل أن هذا المتغير يتميز بكونه في الوقت ذاته مقولة بيولوجية تخلو عموماً من الغموض، وهو أيضاً شبكة قراءة تطبق آلياً على سلوكيات اجتماعية متعددة. لكن السن أو العرق لهما أيضاً هذه الخاصية المزدوجة، من دون أن يبدي عالم الاجتماع أي صمت تجاههما. فلماذا إذا يتخلى هذا العالم عن إنتاج تأويل سوسولوجي للاختلافات تبعاً للجنس، يتجاوز اللجوء إلى الاختلافات الطبيعية؟ لماذا لا ينتصر لمنطق تخصصه العلمي في مواجهة كتلة المعطيات التي تشهد على هذه الاختلافات، فيبحث عن أصل التشكل الاجتماعي لهذه السلوكيات المتميزة وسيرورته، الصادرة عن فاعلين اجتماعيين، ذكورا وإناثا؟ (20) في الواقع يتعين البحث عن أجوبة لهذه النوعية من الأسئلة في جهة سوسولوجيا السوسولوجين أكثر منها في جانب سوسولوجيتهم، لا سيما أن السوسولوجيا تدعو باستمرار إلى القيام بسوسولوجيا الممارستها العلمية، سواء تعلق الأمر بنمط الأسئلة التي تطرح على الواقع، والتي تحقق دراستها مردودية أيديولوجية و/أو مادية، أو بنوع المنهجيات المعتمدة. وفي هذا الصدد، ترى ماري دورو بيل أن تحليل الموقع الاجتماعي لعلماء اجتماع التربية أنفسهم، ولانخراطهم فاعلين اجتماعيين، ضمن المقاربة السوسولوجية التي تسعى للكشف عن حيثيات الصمت، على الأقل في السياق الفرنسي، غالبية الباحثين هم رجال، وغالاً ذوو مرجعية ماركسية. يمكننا أن نفترض أن صمتهم إزاء التمايزات بين الجنسين آت أولاً من كونهم رجالاً، فهم «لا يتهبون للمشكل»؛ بحيث يفكرون في ذواتهم باعتبارها كونية وليست إشكالية، بالتماهي اللاواعي مع العام ومع الذكر. فعندما يحللون، المدرسة من دون التطرق إلى التفاوتات بين الجنسين، والانتصار لوجهة نظر خاصة بعيدة عن منطق العلم ومقتضياته (5) ويعود الصمت أو العمى السوسولوجي أيضاً إلى كونهم ذوي مرجعية ماركسية؛ فهم يدركون الصراع، رجال/نساء، باعتباره ثانوا مقارنة بالصراع الطبقي. لكن هل إن المرجعية الماركسية قناع أيديولوجي إذا كان الأمر كذلك ربما بالنسبة إلى الماركسية الأرثوذكسية وتعبيراتها في شتى حقول المعرفة، بما في ذلك السوسولوجيا التي كانت تعتقد أن القضاء على النظام الرأسمالي سيؤدي حتماً إلى القضاء على السيطرة الذكورية، أي إن حل التناقض الطبقي سيفضي بلاشك إلى حل التناقض الجنساني، فإن الأمر بخلاف ذلك مثل بالنسبة إلى الباحثات الممثلات لما يسمى تيار النسائية المادية اللواتي لم يثنهن استلهامهن المرجعية الماركسية عن تأكيد تلازم الصراع الطبقي والنضال ضد الهيمنة الذكورية. ذو المرجعية الماركسية، ونيكول - كلود ماثيو Nicole-Claude Mathieu، وباولا تابت Paola Tabet، وكوليت غيبومان Ccolette Guillaumin .

إلخ، بأن النظام البطريركي يخترق كل الطبقات الاجتماعية، ويوجد في كل المجتمعات الإنسانية، بما فيها تلك التي تخلو من الطبقات الاجتماعية، ومن ثم فمعركة القضاء على النظام الرأسمالي ومعركة القضاء على التمييز الجنسي معركتان متلازمتان يجب أن تسيرا على نحو تساوقي وتزامني (2). ويتأثير الانغلاق النظري أو هيمنة البرادغم المهيمن على إشكالياتهم. يبدو لنا أنها وحدها إثنومركزية للجنس قوية جا، يمكنها أن تفضي إلى عدم اعتبار الجنس، ومن ثمة في كل البيئة الاجتماعية للذات، وانطلاقاً من ذلك، أن كان تعليم الفتيات لم يظهر، في البداية، موضوعاً جديراً بالاهتمام سوى لدى عالمات الاجتماع النساء، ونسائي (وعلاوة على ما سبق، يبدو أن استبعاد الخوض في موضوع التفاوت بين الجنسين غير مفصول عن علاقات القوى الخاصة على مستوى الحقل العلمي نفسه، بل عن علاقات القوى العامة التي تربط الرجال والنساء، وتحديداً علم النفس . إلخ) ولسوسولوجيا التربية على نحو خاص؛